

نماذج حية لطرق الاستعمار الفرنسي في القضاء على الشخصية الوطنية

أ. د / نصر سلمان

جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ومن اتبع سبيله
واقفني أثره إلى يوم الدين وبعد :

فإنه ليسعدي أن أسهم بمداخلة علمية بعنوان : " نماذج حية لطرق الاستعمار
الفرنسي في القضاء على الشخصية الوطنية " وهذا في ملتقاكم المبارك الموسوم
بـ : " المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر 1830 - 1962 وتأثيراته
المعاصرة " والمزمع عقده أيام 8 ، 9 ، 10 ماي 2005 م ، وذلك من خلال
النقاط الآتية :

أولا — القضاء على المؤسسات الدينية :

لقد درس الاستعمار الفرنسي ذلكم الدور الجبار الذي تقوم به هذه المؤسسات
الدينية من مساجد وزوايا ، فراها تسهم بشكل جلي في إذكاء الروح العلمية
وبث الوعي ودعم المقاومة ضده إذ كان من أبرز أنشطتها وأعمالها :
تحفيظ القرآن الكريم ، واحتضان اللغة العربية ، والثقافة الإسلامية، ونشر
الإسلام في ربوع المعمورة ، وإنهاء الخلافات والخصومات بين مختلف طبقات

المجتمع ، والمشاركة في مقاومة المستعمر الغاشم ، وتكثيف الجهود لمحاربة
الفرنسة والتنصير . (1)

ولما رأى المستعمر الغاشم الدور الفعال الذي تلعبه هذه المؤسسات في تنوير
العقل المسلم وفي شحذ الهمم لمقاومته ، وطرده مذموما مدحورا راح يقاوم
ويحارب هذه المؤسسات بأبشع الطرق وأخسها وفق مشروعه الاستعماري
الثقافي فعمل على مقاومتها بالطرق الآتية : (2)

1. هدم الكثير من المساجد ، والزوايا .

2. تحويل العديد من المساجد، والزوايا إلى كنائس وثكنات وإسطبلات
ومستوصفات ومراكز إدارية .

إذ المساجد أو الزاوية يمثلان السلطة الروحية للمسلمين، فكم من مجاهدين
من كانت انطلاقته الأولى في الالتحاق بجيش التحرير من أحد هذين
المعقلين، وكم من المساجد من أعلن فيه النفي العام، ومن أدل الدلالات على
دورهما شعور فرنسا بخطرهما ف راحت تحول المساجد إلى كنائس كمسجد
كتشاوة بالجزائر، ومسجد بن مروان بعنابة وجامع الباي بقسنطينة وغيرها
ومن المساجد من حولتها إلى ثكنات كجامع القصبة ببجاية الذي كان عبد
الرحمن بن خلدون يدرس فيه ويبدع.

¹ - يحيى بوعزيز : أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . مجلة
الثقافة ، السنة الحادية عشرة العدد : 63 ، رجب ، شعبان 1401 هـ الموافق لـ : مايو ،

يونيو 1981 م ، ص 18 - 19 .

² - المرجع نفسه ، ص 24 - 25 .

ومما حولته إلى مخازن ومتاجر مسجد سيدي حسن بمعسكر الذي حولته إلى مخزن للبضائع والذخائر مدة، ثم سلمته لتاجر يهودي يخزن فيه ويتاجر بالحبوب وعلف الحيوانات ومنها ما حولته إلى حظيرة لتربية الخنازير كمسجد خنق النطاح بوهران الذي سلمته لليهودي حوله إلى حظيرة لتربية الخنازير إمعانا في المهانة والإذلال والاحتقار للإسلام والمسلمين.

أما بالنسبة للزوايا التي تدرس فيها مئات الطلبة فمنع فيها تدريس أبواب الجهاد في الفقه الإسلامي وتفسير القرآن، ومبادئ العقيدة، ولم يسمح فيها إلا بتحفيظ القرآن دون سواه، بل تجاوز الأمر مصادرة أملاكها الوقفية كما حصل ذلك مع زاوية الشيخ الحداد بصدوق التي طاردها الإدارة الفرنسية بعد ثورة المقراني 1871م³، هذا وقد حاولت فرنسا إنشاء زاوية عصرية موازية بالقرب من الزوايا الأصلية الداعية لتحرير الوطن عن طريق الجهاد في سبيل الله، اعتقادا من فرنسا أن الزاوية الجديدة ستكون تحت سلطانتها ونظرتها، وذلك انطلاقا من مشروع "ديون وكوبولاي" الذي يسمح لفرنسا أن تسيطر على الزوايا والطرق الصوفية⁴.

ورغم ذلك فقد أدت الزوايا دورها كاملا غير منقوص في الدفاع عن الوطن فثورة الأمير عبد القادر مثلا ما كان لها أن تأخذ هذا الحجم من الذيوع والتأييد والانتشار لولا استنادها على الطريقة "القادرية" الدينية، وكذلك بالنسبة لثورة الشيخ بوعمامة الذي كان هو نفسه شيخ طريقة، وكذا ثورة

³ — المقال نفسه: ص 7.

⁴ — محمد الطاهر عزوي: مقال بعنوان: "العوامل التي استعملها الاحتلال الفرنسي لمحاربة الدين الإسلامي منذ الاحتلال إلى استرجاع الاستقلال" ص 14.

المقراني ما كسبت التأييد والعون من الشعب إلا بعد انضمام الشيخ الحداد وأولاده — شيخ زاوية صدوق — إلى صفوفها، وهم الذين قادوها بعد استشهاد المقراني ووهبوا الوطن أغلى ما يملكون⁵.

ولم يكن دور المساجد بأقل أهمية مما قامت به الزوايا، فلقد كانت المساجد الحضر الدافئ للفقراء والمساكين، والمدرسة النموذجية للمتعلمين والمحكمة المثالية للمتخاصمين، والممول الرئيس للمقاومين والمجاهدين، ولذا أراد الاستعمار الفرنسي أن يفرغها من روحها، وأن يجردتها من مضامينها الفعالة، لأنه كان يراها بمثابة القنبلة الموقوتة التي تتفجر في وجهه الغاشم مقوضة ظلمه واستبداده من القواعد.

هذا ولما يستقرئ الدارس تاريخ المساجد الجزائرية، وما فعل بها إبان الحقبة الاستعمارية، وما طمس من دورها الفعال، وما طرأ عليها من تقاتل وتطاحن من قبل أبنائها يجد نفسه مضطرا لأن يخاطب هذه البقع الطاهرة قائلا: ⁶

يا مسجدي يا موطن الضيَاء .: ومنيع الوصال والإخاء
ومسكن الغريب في تاريخنا .: وجمع العلوم والنقاء
جيوشنا من مسجدي قد خرجت .: وحطمت معاقل الأعداء
على حصائر مسجدي .: قد أرسيت دعائم القضاء
وشيّدت بساحكم مجالس .: للذكر والعلوم والإفتاء
قد جئتُ يا مسجدنا لبابكم .: مفتشا عن هذه الأشياء

⁵ — عمار قليل: المرجع السابق، ج1، ص 137 - 138.

⁶ — هذه الأبيات للأستاذ الدكتور سلمان نصر.

لم ألقها فقلت يا إلهنا .: فما الذي دهي حظيرة السماء
وما الذي أفرغها من روحها .: وما الذي أرجعها حجارة جوفاء
وما الذي جرّدها من دورها .: وما الذي أخرجها من عالم الأحياء
ولم تجد أسئلتي إجابة .: إلى نطقت صخورها الصّماء
قائلة أخرجتني بسؤلكم .: رسالي قد عقّها الأبنساء
بساحتي تقاتلوا تطاحنوا .: وغيرهم قد جاوز الجـوزاء
وقرّمت رسالي وأهمّلت .: مبادئي شراذم دهماء
وبعدما حاورني وردّ عن .: أسئلتي أجهشتُ بالبكاء
ثم انصرفتُ مرغداً ومزبداً .: مردداً سيرجع الضياع
3. مضايقة المشرفين على هذه المؤسسات ، وذلك بمطاردة الأئمة وشيوخ
الزوايا والزج بهم في السجون، وتعرض البعض منهم للنفي والبعض
الآخر للتشريد والتقتيل . وإلى جانب ذلك منعت الأذان في المساجد
المجاورة للمسيحيين الدخلاء، هذا مع رفض رفع سلطتها السياسية
والإدارية عن الإسلام والمسلمين رغم صدور قانون 1907م القاضي
بفصل الدين عن الدولة⁷.

4. مصادرة أملاك الأوقاف والحبس الإسلامية التي تمول هذه المؤسسات .

5. قصر التعليم على تحفيظ القرآن الكريم لا غير ، وذلك بمنع التعرض
لتفسير الآيات التي تحث على الجهاد وتدعو إلى التحرر من الظلم
والاستبداد .

⁷ — يحيى بوعزيز: مقال بعنوان: "البعد الحضاري الديني والاجتماعي لثورة نوفمبر 1954 —

ثانياً — تشويه وتغيير الأسماء والألقاب :

لقد فرض الاستعمار الفرنسي على الجزائريين أسماء لا هي عربية ولا هي أعجمية إمعانا في تشويه الشخصية الجزائرية .

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ الدكتور عبد الله بوخلخال : " إن الاستعمار الفرنسي كان يدرك أهمية الأسماء باعتبارها وعي الإنسان بكيونته الوجودية وبصيرورته التاريخية والحضارية، وهويته الذاتية والاجتماعية والوطنية .

فالاستعمار الفرنسي لم يكتف بعد احتلاله الجزائر سنة 1830 م بالسيطرة السياسية والعسكرية ، ونهب الثروات الوطنية ما فوق الأرض وما في باطنها ، بل امتدت يده وبكل شراسة وفق مخطط دقيق إلى الثقافة باعتبارها ذلك المركب الذي يشتمل على جميع المقومات الحضارية واللغوية والدينية التي يتميز بها الشعب الجزائري من أجل محوها نهائيا من ذاكرة الأجيال اللاحقة ."⁽⁸⁾

ومن أجل تنفيذ هذا المخطط قامت السلطات الفرنسية في الجزائر بإصدار تنظيمات جديدة تمثلت في إصدار قانون التلقب — الحالة المدنية — الصادر في تاريخ 23 مارس 1882 م والذي يجبر الجزائريين على اتخاذ ألقاب أهلية خاصة غير التي كانوا يحملونها فمن الأسر من احتفظت بلقبها السابق ومنها من أعطي لها حرية اختيار اللقب الجديد ، ومن الأسر من فرضت عليها ألقاب غير مقبولة ولا معقولة ، وكل من يخالف هذا القانون يتعرض لعقوبة شديدة .

وكان الغرض من هذا القانون هو قطع الصلة بين الجزائريين وأسمائهم وألقابهم التي تربطهم بأصولهم وتذكرهم بأجدادهم ، وتجعلهم متميزين عن الفرنسيين.⁽⁹⁾

⁸ - عبد الله بوخلخال: " الأسماء والألقاب في الجزائر ودلالاتها " . مقال مخطوط .

⁹ - عبد الله بوخلخال: " الأسماء والألقاب في الجزائر ودلالاتها " . مقال مخطوط .

ولا شك أن فرنسا كانت على دراية تامة بخطورة تغيير الأسماء والألقاب لأن ذلك يؤدي إلى أن يصبح الأخوان أو الأعمام وبنو إخوانهم يحملون ألقاباً مختلفة مما ينجم عنه أخطار جمّة تتعلق باختلاط الأنساب ، والحرمان من الميراث مما يؤدي في النهاية إلى القضاء على كيان الأسرة وصيرورتها الاجتماعية .

وهكذا كانت النتيجة معروفة ومتجلية للعيان ، فبعد أن كانت أسماء الجزائريين وألقابهم وأنسابهم تحتوي على القيم الحضارية والتاريخية والثقافية والدينية والاجتماعية ، غُيرت إلى معجم لـ :

1. الحيوانات والطيور الأليفة والمتوحشة مفردة وجمعا ، وما يتعلق بها من أدوات .
2. الحشرات بأشكالها وأنواعها .
3. الأدوات الفلاحية والحرفية وغيرها .
4. النباتات والبقول والحبوب بأشكالها وأنواعها .
5. الحرف والمهن المختلفة .
6. العيوب والعاهات الجسدية والأمراض والفضلات والروائح الكريهة .
7. أعضاء جسم الإنسان الخارجية والداخلية .
8. المأكولات والمشروبات .
9. الألوان المختلفة .
10. الأفعال المرفوضة خلقيا واجتماعيا .⁽¹⁰⁾

¹⁰ - المقال نفسه .

ثالثا - تشجيع الزواج المختلط :

لقد عمل الاستعمار الفرنسي البغيض بكل قواه على تشجيع الزواج المختلط ، وذلك بغرض تهجين المجتمع الجزائري ، وتدجينه ، وإفراغه من روحه الدينية والوطنية ، وذلك بإيجاد شرائح من أبنائه تربطهم بالمستعمر روابط الخثولة والولاء ، هذا في أحسن الأحوال إن لم يتمسحوا ويتفرنسوا بتأثير اتباع أمهاتهم الفرنسيات .

وهنا يحلو لي أن أردد ما قاله شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا (رحمه الله) في إلياذته واصفا أحوال هؤلاء :

وبعض تزوج بالأجنبيه وقال مثقفة حضريه
ترافقني وترافق هذا وذاك .. وتعبث عن حسن نيه
وتختال بالميني جوب دلالة وتستعرض المغريات الخفيه
وتتركني لا جناح عليها وتذهب للسهرة النرجسيه
وتقضي الليالي خارج بيتي وذلك من نعم المدينه
وإن ولدت ... لست أدري لمن؟ كفا أنه من بني البشريه
أناديه صالح عند الصبا ح وأدعوه موريث عند العشي
وإن زل يوما تناديه بيكو فأحسب بيكو من البكويه
وتدعو مساعدنا مون اراب فأهوى العروبة والعريه
وأنخر في نحرها غيرتي فتغدو أنا ... ثم أصبح هيه (11)

¹¹ - إلياذة الجزائر ، ص : 61 .

ورحم الله الشهيد محمد الأمين العمودي حين كتب يحيى الدكتور سعدان المتزوج بأجنبية فقال :

حيي الطيب ولا تهمل قرينته فهو سليمان والمادام بلقيس
له غلام أطال الله مدته تنازع العرب فيه والفرنسيس
لا تعذله إذا ما خان ملته فنصفه صالح والنصف موريـس⁽¹²⁾

رابعا - تشويه تاريخ وجغرافية القطر الجزائري :

مما لا شك فيه أن للتاريخ دوره الفعال في تكوين شخصية الأمم والشعوب، وذلك باعتباره أحد المقومات الأساسية لكل أمة من الأمم ، والأمر نفسه بالنسبة لجغرافية أي قطر من الأقطار لأنها ذات ارتباط وثيق ، واستراتيجية فعالة في تكوين الروح الوطنية والشخصية القومية ، ولذلك راح الاستعمار الفرنسي يحاول تشويههما ، وحرمان الجزائريين من دراستهما ، متبعا في ذلك الأساليب الدينية الآتية :⁽¹³⁾

1. الزعم الكاذب بأن أصول الجزائريين عرقيا تنحدر من بلاد الغال بجنوب فرنسا وليس من شبه الجزيرة العربية ، كما هو رأي معظم المؤرخين الثقات، وذلك حتى يتسنى لفرنسا حمل الجزائريين على قبول فكرة الإدماج ، وهذا باعتبار الجنس الذي يجمع بين الفرنسيين والجزائريين .

¹² - هامش إيذاة الجزائر ، ص : 61 .

¹³ - تركي رابح : التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص : 192 - 195 ، ط : 1395 هـ - 1975 م الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر .

2. اعتبار الفتح العربي الإسلامي للجزائر بمثابة استعمار عربي لها ، وأن فرنسا جاءت لتحرير الجزائر من هذا الاستعمار الذي جثم بكله على صدور الجزائريين طيلة ثلاثة عشر قرناً .

3. الاستعاضة عن تدريس تاريخ الجزائر الأصيل بتدريس تاريخ فرنسا دراسة تفصيلية وذلك بغرض نشأة أبناء الجزائر وهم على جهل تام بتاريخ بلادهم .

4. حظر تدريس تاريخ الجزائر وجغرافيتها لأبناء الجزائر من قبل معاهد التعليم العربي الحر ، بل كان من شروط منح رخصة التعليم للمعلمين وجوب استبعاد تاريخ الجزائر وجغرافيتها من منهج الدراسة .

5. تدريس جغرافية الجزائر لأبنائها على اعتبار أنها جزء لا يتجزأ من فرنسا

6. الاستعاضة عن تدريس جغرافية الجزائر بتدريس جغرافية فرنسا، حتى ينشأ جيل يجهل وطنه جغرافيا جهلاً مطبقاً .

والخلاصة : أن فرنسا كانت تهدف من ذلك إلى تكوين جيل هجين يجهل تاريخه الأصيل المرصع بالذهب الإبريز ، وجغرافيته بلاده التي هي جزء من كيانه وهويته الوطنية، ليكون ولاؤه في النهاية لفرنسا يأتمر بأوامرها وينتهي بنواحيها ولا يختمر بذهنه أدنى شعور في مقاومتها، وإخراجها من الجزائر مذؤومة مدحورة ، وهذا أقصى أمانى هذا الاستعمار البغيض .

خامساً — محاولة القضاء على العقيدة الإسلامية :

وذلك بمحاولة إخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي وتنصيرهم كي يصبحوا مسيحيين يحملون عقيدة المحتل لبلادهم ، وهذا يعني إحلال الديانة المسيحية محل

الديانة الإسلامية في الجزائر ، قصد القضاء على مقوم آخر من مقومات الشخصية الجزائرية ألا وهو الإسلام .⁽¹⁴⁾

وقد تجلت سياسة تنصير الجزائريين منذ احتلال العاصمة سنة 1830 م ، فقد كان من بين أهداف الغزو الفرنسي نشر المسيحية والقضاء على الإسلام ، ولقد أعلن عن ذلك صراحة سكرتير الحاكم العام الفرنسي للجزائر في سنة 1832 م حيث قال : " إن آخر أيام الإسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح ونحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا ، فلا يمكننا أن نشك على أي حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد ، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا . " ⁽¹⁵⁾

هذا وقد اتبع المستعمر أسلوبا جهنميا في تنصير الجزائريين فراح ينصر بعض أفراد العائلة فتصبح العائلة بعضها مسلما وبعضها الآخر مسيحيا، وكان يهدف من وراء ذلك إلى إشعال فتيل نار الفتنة بين أبناء الأسرة الواحدة ، وهذا ما عبر عنه أحد كبار المنصرين الفرنسيين في الجزائر بقوله :

" يجب أن نشعل النار في رحم الأمهات، وهكذا لا تتفكك العائلة فحسب، بل تلتهب عداوة وبغضا، لأن ما بقي فيها من المسلمين يعتبرون إخوانهم مرتدين ، والمتردون يعتبرون إخوانهم أعداء لهم بنصوص الأناجيل... " ⁽¹⁶⁾

¹⁴ - تركي رايح : التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص 107 .

¹⁵ - المرجع نفسه ، ص 107 - 108 .

¹⁶ - خديجة بقطاش : الحركة التبشيرية الفرنسية والجزائر ، ص : 105 ، نقلا عن اسعيد عليوان : مجهودات الاستعمار الفرنسي في تفكيك الأسرة الجزائرية ، مقال منشور بمجلة الشهاب الجديد ، العدد الرابع : ربيع الأول 1426 هـ / أبريل 2005 م .

وهنا نسجل بكل فخر واعتزاز صمود الجزائريين في وجه هذه الحركة التنصيرية
البغيضة إذ لم تستطع فرنسا وأذنابها من المنصرين أن ينالوا من عقيدة هذا
الشعب العظيم ، وقد سجل ذلك شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا في إلياذته
حيث قال :

وأعيا المبشر عمق العقيدة فلم تجد فينا المساعي الحميدة
ولا غسل في طواياه سم ولا البذل يخفي الشرور المبيده
ولا أن يطوف بأبوابنا ومن خلفها عزمات وطيده
ولا أن يعالج فينا المريض وتحتك في أصغريه العقيدة
ولا بالأناجيل تنشر فينا فتصبح بالوضع غير مفيدة
فحسب المبشر قرن ونصف تجارب للزيغ كانت بليده
فإيماننا شامخ كعلانا ونظرتنا فيه ظلت بعيده
ليغز المبشر أبناءه فقد أصبحوا كالقروود الطريده
وأحرى بنا أن نبشر فيكم بإسلامنا والمبادي الرشيدة⁽¹⁷⁾

وفي الختام:

تقبلوا مني خالص الشكر وفائق التقدير مع تمنياتي القلبية أن تتكلل أعمال
ملتقاكم الميمون بالنجاح الباهر والفائدة الجمة ، والله من وراء القصد وهو
المهدي إلى سواء السبيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الطاهرين
ومن اتبع هداه إلى يوم الدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

¹⁷ - إلياذة الجزائر ، ص : 60 .

جهود الاستعمار في تأصيل تاريخ الجزائر

خافية لمشروع الاستلاب الثقافي

د / إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

توطئة:

لقد عمل الاستعمار الفرنسي على اقتلاع تاريخ الأمة الجزائرية من جذوره وذلك عن طريق ربطه بمسار التاريخ الأوربي مجندا كل ما توفر لديه من وسائل وسالكا كل الطرق المؤدية إلى تحقيق الهدف ضمن مشروع استعماري استدماري شامل، وحيث يقوم التاريخ فيه مقام الأساس الذي يشد بنيان الأمة ويلحم عناصرها لذلك بنى الاستدمار جهوده على خلخلة هذا الأساس، ومن ثم تفكيك لحمة المجتمع ليسهل استلابه فكريا، وسلبه ماديا .

واستخدام عنصر التاريخ الجزائري والمغربي في ذلك من خلال تأصيله والعودة به إلى العالم الروماني والبيزنطي خاصة، والقديم عامة ليكون الاستدمار الفرنسي الوريث الشرعي لهذا التاريخ .

فما هي الطرق التي سلكها؟ والوسائل التي استخدمها؟ والجهود التي بذلها؟ وما هي ميادينها ضمن منظومة التاريخ؟ وإلى أي مدى تمكن من تنفيذ مشروعه الاستدماري الشامل؟ تلك أسئلة سأحاول الإجابة عليها من خلال تحليل عناصر هذا الموضوع.

1 - التحضير المعنوي للحملة العسكرية الاستعمارية بداية تنفيذ المشروع:

لقد صُحِبَ التحضير للحملة العسكرية على الجزائر تحضير معنوي استخدمت فيه الدعاية لاسيما الصليبية التي تريد في حماس الجنود، وتشجع المتطوعين على الانخراط في حملة الغزو، وهو الوجه الآخر للحملة، فقد التحق بالجيوش عدد من رجال الثقافة والإعلام في تولون وغيرها من الموانئ والمدن الواقعة جنوب فرنسا، وعلى الضفة الشمالية للمتوسط¹، وكان ذلك بتشجيع من السياسة الفرنسيين، ورجال الدين، ويبين هذا ضخامة المشروع الاستعماري الثقافي الذي جندت له كل الوسائل لاسيما الإعلامية، والثقافية والدينية التي عملت في اتجاهين الأول معرفة مقدرات هذا البلد المغزو، والثاني تنفيذ مخطط تشويش وتشويه يمس قيم ومرتكرات المجتمع المتجذرة والأساسية ليسهل استلابه، فكان أن حملت إحدى سفن الأسطول الغازي أول مطبعة²، والتي سوف يصدر عنها أول صحيفة تحمل اسم " بريد الجزائر - Estafette d'alger " ³

¹ - الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، دون تاريخ)، 5.

² - فكرة جلب مطبعة تعود إلى السيد جان توسان ميرل، أما منفذها فهو الجنرال دو برمون قائد الحملة ، وقد ركبت آلتها يوم 27 جوان 1830 تحت خيمتين قرب مرتفع نور شيسا، وعرفت باسم " مطبعة المرباط " لقرىها من مزار المرباط، ودشنت يوم 28 جوان 1830 من قبل الضباط في احتفال بهيج، ووزعت أول نشراتها . انظر الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، 14

³ - صدر العدد الأول من هذه الصحيفة يوم 1 جويلية 1830 إلا أنه كان يحمل تاريخ 25 جوان 1830 في حجم صغير تحمل شعار الجيش الفرنسي الذي يحتوي على مجموعة من الرايات

الوجه الآخر للحملة الغازية:

إن للحملة الاستدمارية الأوروبية الممثلة في الفرنسيين لها أوجه متعددة، ومن بينها الوجه الثقافي، والتأسيس له منذ عقود وقبل أن يدخل المشروع الاستدماري حيز التنفيذ في جوان 1830، وعبر عن هذا الوجه أصدق تعبير الأستاذ الكبير مولود قاسم نايت بلقاسم عندما أطلق على الاستعمار اسم " الاستدمار " لأن مشروعه كان مسخا وفسخا وإدماجا، وإذابة، وتمسيحا واستلابا لشخصية الأمة الجزائرية، والرجوع بها إلى البدائية¹، وضرب هويتها وليس تعميرا لاسيما إذا عرفنا أن الحملة الفرنسية كانت تحمل معها إلى الجزائر كل أدوات الغزو الفكري والثقافي، فقد جاءت بالمطبعة، والصحافة وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الإسلام وتاريخه، وبالتراجمة الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الأوروبية، أو من الذين جاءوا من الشام ومصر بعد أن ارتبطوا بالحضارة الأوروبية عقب حملة نابليون².

معلقة فوق رماح مشوفة في تاج، ومخزومة بقلادة سان لوي st. louis . انظر، الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، 16.

¹ - إنية وأصالة، منشوات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، (الجزائر : مطبعة البعث بقسنطينة 1975/1395)، 232.

² - انظر في شأن ذلك كل من "جورج غروي، وجون فرعون، وشارل فيرو" مترجمو جيش الحملة المدعو بـ " الجيش الإفريقي"، وهنري ماسي في كتابه عن " الدراسات العربية في الجزائر 1830 - 1930 " وذلك في المجلة الإفريقية العدد 356 و 357 ، لسنة 1933 = REVUE AFRICAINE Numero, 356 et 357. Annee 1933 . (Alger : Office des publications Univrsitaires,), p, 1,2. وانظر

اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر:

يبدأ اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر منذ أن تم إنزال جيوشهم في شبه جزيرة سيدي فرج حيث أصدرت - كما سبق ذكره - أول صحيفة لهم في بلادنا " بريد الجزائر - Estafette d'alger " إذ بدأ اهتمام الصحيفة بتقاليد السكان، وأعمالهم لاسيما الفلاحية، ووعدت افتتاحيتها بأنها ستجمع كل الوثائق ذات القيمة الكبيرة والمتعلقة بالإحصائيات، والجولوجيا وإمكانيات الوطن الذي يخضع لجيوش المحتل¹، وصدر بعد ذلك عديد الصحف جلها ناطقة باسم المعمرين تهتم بأحوالهم، وفي سنة 1848 صدرت أول جريدة رسمية ناطقة باللغة العربية هي " المبشر " موجهة إلى سكان البلاد، وكان هدفها البعيد والأساسي هو " القضاء على العناصر الوطنية الثائرة " كالأمير عبد القادر والوصول إلى الجزائريين الذين كانوا لا يفهمون آنذاك غير اللغة العربية²، وهي التي اهتمت بنشر المقالات العلمية والمعرفية لا سيما في التاريخ والجغرافيا، والقصد من هذا غزو نفوس الجزائريين³ واختراق عقولهم .

أيضا ، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1978)، 18.

¹ - الزبير سيف الإسلام، تاريخ الصحافة في الجزائر، 18.

² - محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1939، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980)، 19.

³ - نفسه، 19 ، 21.

كما اهتم العسكريون بالأثار التاريخية لاسيما العائدة لفترة الرومان والبرنطيين، والاستيلاء على الوثائق، والكتب المخطوطة، وزمالة الأمير عبد القادر خير دليل على ذلك؛ ومظاهر هذا الاهتمام نوضحها في العناصر الآتية :

I — التشكيك في الأحداث التاريخية المصرية في تاريخ الجزائر خاصة والمغربي عامة:

إن السياسة الاستعمارية كما يقول عثمان الكعاك " بدأت بتغطية من التلفيقات التاريخية، والمغالطات ، والسفسطائيات وأنصاف الحقائق، وأرباع الحقائق، واللاحقائق، وأضداد الحقائق " ¹.

وقد بدأت هذه السياسة بالتشكيك في أخبار الكتاب العرب عن المغرب؛ فشككوا في أخبار الفتح، ووصول عقبة إلى المحيط وفي انتماء السكان (الجنس البربري) ، كما كانوا يقولون، من ذلك قولهم : " أنهم — السكان — لا يكونون جنسا بالمعنى الفني لهاته الكلمة، بل مركبا جنسيا، ولهم لغة من أصل مجهول، وأن سكان الجزائر عبارة عن جماعات غير قادرة تربطها أصلية واحدة تتمثل في نفوذ الرئيس وقوته؛ ولئن التأم مع السيطرة المادية للشعوب الأجنبية التي اتصلت به حتى تأثر بها ولكن بصورة سطحية ²، ولذا جندت العديد من

¹ - موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة " الأصالة " مجلة تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية السنة الثالثة، العدد 14 ، 15 عام 1973/1393 عدد خاص، ص، 139.

² - . شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة، المنجي سليم، والطبيب المهيري، والصادق المقدم، وفتح زهير، والحبيب الشطي، (تونس/ الجزائر: الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1976/1396)، 22.

الإمكانيات العلمية للبحث في أصول القبائل لأفريقيا الشمالية، وحركات الهجرة ، وأنجزت فيها البحوث والدراسات، وألفت فيها الكتب¹، وقال بعض الكتاب والمؤرخين الفرنسيين منهم دو سلان ، واستيفان قزال: " أنه من الفتح العربي إلى عام 1500م أن الباحث يدخل في ظلام دامس لعدم وجود الوثائق المعاصرة² كما شككوا في أصالة اللغة العربية، وقدرتها!!.

إن عملية التشكيك تأتي في سياق منهج التهديم ثم إعادة البناء، أي تهديم تاريخ الجزائر ثم إعادة بنائه وفق مسار التاريخ الأوروبي وفي سياقه، أما التركيز على الوثائق المعاصرة فهو حق أريد به باطل.

II - اعتبار الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب غزوا:

إن الإسلام، والأرض، والكيان لهم رابط قوي في هذه البلاد، وقد اكتشف الاستعمار أبعاد التراث الثقافي في بلاد المغرب لاسيما ما يتصل بالتاريخ، كما أدرك أهمية فهم التراث لإرساء قواعد الاستعمار على أسس متينة، فأخذ يشجع ترجمة بعض الكتب العربية إلى الفرنسية، فقام البارون دو سلان بتحقيق القسم الخاص ببلاد المغرب من كتاب العبر لابن خلدون وترجم ونشر كتاب " المغرب في ذكر بلاد المغرب للبكري، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك"، كما ترجم " تاريخ الموحدين والحفصيين للزركش"، والنصوص التي تتعلق بالمغرب في الكامل لابن الأثير³.

¹ - من أبرز الباحثين كاريت الذي نشر بحثه في باريس عام 1853.

² - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 27.

³ - إسماعيل العربي، موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة " الأصالة " ، السنة الثالثة، العدد 14 ، 15 عام 1973/1393 عدد خاص، ص، 139.

ولذلك حاول المؤرخون الغربيون اقتلاع شجرة التاريخ من جذورها، فعدوا الفتح الإسلامي غزواً، وهو الذي أدخل بلاد المغرب في ظلام دامس استمر حتى أحضرت فرنسا الحضارة والازدهار والحريات، وكلها خيرات لم يسبق لها هذا الشعب (الجزائري) أن عرفها أبداً، فلم يستطع قط خلق حضارة مبتكرة¹، وكان هجم عليه بلا انقطاع، وقد خضع بالتناوب للقرطاجيين، والرومان، والوندال، والبيزنطيين، والعرب، والأتراك ثم أخيراً الفرنسيين الخلفاء الشرفاء للرومان²، إنه رابط وإسناد ذكي عندما سلسل الكتاب هذه الغزوات لكن الرومان والفرنسيين ليس كالغزاة الآخرين! لذلك انصبت دراسات مؤرخي الاستعمار على تصوير الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب على أنه غزو فرض بالقوة الدين الإسلامي بالإكراه والسيف، وقطع صلة البلاد مع الحضارة الغربية والكنيسة، فتعطلت المدنية وتوقفت، وأن الجزائر لم تتوحد، وكانت دائماً خاضعة للمغيرين كما يقول نوشي³، وعن الفتح هذا قال بعض المؤرخين: "لقد اصطدم الفتح العربي بعنت مقاومة طال أمدها من طرف قبائل بعضها مسيحية أو يهودية وغالبها متعاطي عادات الطبيعة" يريد بذلك أن يؤصل لهذا المقاومة في المسيحية واليهودية أولاً؛ وفي غيرها ثانياً. ⁴

¹ - وهو كلام يجانب الحقيقة والمنهجية العلمية، فالزهاء من كتابهم بينوا في العديد من المؤلفات -
العطاء الحضاري لهذه الأمة، وما تعلمته الأمم الأخرى منها في نجاة وغيرها. ⁵
² - أندري برنيان، وأدري نوشي، وإيف لا كوست، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة
استطبولي رابح، ومنصف عاشور، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984)، 8: ⁶
³ - المهدي البوعبدلي، موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة "الأصالة"، السنة 3 -
الثالثة، العدد 14، 15 عام 1973/1393 عدد خاص، ص 126. ⁷

III - الاهتمام بالتاريخ القديم للجزائر لاسيما الروماني:

إن تأصيل تاريخ الجزائر وفق منظور المشروع الثقافي الاستدماري تطلب جهودا مكثفة من قبل العلماء والكتاب وخاصة المؤرخين المهتمين بالتاريخ، فإلى جانب ما قامت به الصحف والقادة العسكريين، أنشئت العديد من اللجان العلمية¹، التي قامت بنشر دراسات هامة في عدة أجزاء عن الآثار والعلوم الطبيعية، والفنون الجميلة، والتاريخ، وعلم السلالات، والجمعيات الأثرية²، التي كانت تصدر دوريات ومجلات جد هامة كمجموعة **Recueil** والتقويم **Annoaire** والمجلة الإفريقية **Revue Africaine** ونشرة جمعية وهران **Bulletin** ثم المكتبات كمكتبة متحف الجزائر نواة مكتبة مدينة الجزائر 1835، والمكتبات العسكرية، والمتاحف³.

وانطلاقا من هذا النشاط المكثف والمبرمج نتبين أن هؤلاء الكتاب والمؤرخين اتبعوا منهجا يختلف عن المسار الطبيعي لتاريخنا وينسجم مع مسار التاريخ الأوربي، ويتناغم مع المشروع الاستدماري، والاستلاب الفكري والثقافي المخطط له سلفا وكانت معظم الكتابات تصب في هذا الاتجاه؛ فما هو منهج هؤلاء الباحثين؟ وما هي كتاباتهم؟

¹ - اللجان العلمية هي: اللجنة الإفريقية 1833 ؛ ولجنة اكتشاف الجزائر العلمي 1837، أنظر أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 14.

² - الجمعيات هي: جمعية قسنطينة للآثار 1852 ؛ والجمعية التاريخية الجزائرية 1856 ، وجمعية وهران الأثرية 1878. انظر، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 15 - 17.

³ - انظر، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص، 16.

منهج التنقيب والبحث عن الآثار وتوجهه:

لقد عمل المؤرخون الغربيون على تنسيق حوادث تاريخنا خارج السياق الثقافي العربي الإسلامي الجزائري التقليدي ، بحيث يكون التاريخ المعروض مرتباً ترتيباً من نمط التاريخ الديني الذي ألفه القارئ الأوربي ، وبالتالي فهم بهذا المنهج يضعون عقبة في طريق فهم الاتجاه العام للتاريخ حيث يسلب الحوادث من مناخ الثقافة الإسلامية، ويعزلها عن الجو الفكري الذي جرت فيه ¹.

وقد بدأ وفقاً لهذا المنهج اهتمام الفرنسيين بالآثار القديمة منذ أن وطئت أقدام جنود الاحتلال أرض الجزائر، وانصبت اهتمامات الباحثين العسكريين، والمدنيين على الآثار القديمة لا سيما الرومانية ، وحاولوا طمس الآثار العائدة إلى الفترة الإسلامية لبلاد المغرب عموماً، وللجزائر خصوصاً، فيقفز اسم تيمقاد، وجميلة وتيبازة وبونة وغيرها إلى الواجهة العلمية والسياحية، ويؤسس للآثار المتاحف في أهم نواحي الجزائر، وقد ركزوا البحث عن مخلفات أسلافهم الرومان في الجزائر مبينين مجدهم، وأقاموا الدليل ببراءة علمية أيضاً على أن العرب هدموا معالم الرومان²، وعطلوا الحضارة أربعة عشرة قرناً، وبحمد الله جاء الفرنسيون، أو الأسبان أو الإيطاليون وأعادوا مجد روما³!!! والبحث عن الآثار القديمة كان

¹ - إسماعيل العربي، موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة "الأصالة" ، السنة الثالثة، العدد 14 ، 15 عام 1973/1393 ص.118.

² - وذلك عندما حرقوا مقولة ابن خلدون " إذا حل الأعراب بأوطان أسرع إليها الخراب " والأعراب ليسوا العرب، فقالوا: " إذا عربت خربت " قصدوا بذلك العرب المسلمين ، وحملوا عبارة ابن خلدون ما لم تحتمل.

³ - موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة "الأصالة" ، السنة الثالثة، العدد 14 ، 15 عام 1973/1393 ، ص. 143.

المقصود منه إنساء الشعب الجزائري في انتمائيه للدين والحضارة الإسلامية وتوجيه البحث نحو الوثائق التي تبرر موقفهم وتقرر رؤاهم، وتأصل تاريخ الجزائر وفق مخططهم، وتبعاً لبنود مشروعاتهم الثقافية الاستدماري، لذلك فلا توجد في الجزائر قرية أو قبيلة لم يكتب عنها الفرنسيون¹. **الكتابة التاريخية:** لقد بحث الأوروبيون، وكتبوا العديد من الدراسات، ونشروا مئات الكتب والمجلات، والعجيب أن عدداً كبيراً من هؤلاء كتبوا عن الجزائر، ولم يكونوا يعرفون لغة الجزائريين، ولم يوثقوا معلوماتهم²، وتوجد اليوم أسماء كثيرة لمعت في كتابة تاريخ الجزائر، نذكر منها: استيفان قزال معلم تاريخ الجزائر القديم وهو من بين الكتاب الذين أشادوا بتاريخ روما، وأحيوا ما تبقى من آثارها³ وإميل قوتي صاحب كتاب القرون المظلمة أو الغامضة في المغرب *Les Siècles Obscure Maghreb* وهو من بين الذين يعدون العهد الإسلامي (منذ الفتح العربي الإسلامي حتى تاريخ الاحتلال الفرنسي) عهداً غامضاً، وجورج مارسيل الذي له آراء خطيرة في تاريخ الجزائر وسكانها منها: أن الشعب البربري "تنقصه الوحدة والاستمرار"، وبلاد البربر لا يبدو أن في إمكانها التقدم بوسائلها الخاصة، بل تضع نفسها وراء عربة أخرى لتجرها، ويرى بأن القضاء والقدر يمنعها من التقدم بمفردها، ويصف السكان لا سيما ممن شاركوا في

¹ - نفسه، 144، 150. ² - إسماعيل العربي، موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة "الأصالة"، السنة الثالثة، العدد 14، 15 عام 1973/1393 ص: 195. ³ - من أعمال ستيفان قزال: تاريخ الجزائر القديم، والأطلس الأثري.

الثورات ضد الجيش الفرنسي الغازي بأنهم هج، يقفون ضد التقدم الذي يفرض

عليهم، بل أن معركتهم ضد الحضارة¹ !!!؟؟.

وهؤلاء الكتاب أهملوا الشعب ، وتاريخ الجزائر السياسي والثقافي

والاجتماعي مركزين اهتمامهم على فترة أسلافهم الرومان، وعلى فترة

الاحتلال 1830 — 1954 ، ولم ينسوا المسيحية في كتاباتهم

وهو تأصيل مقصود يأتي ضمن المشروع الثقافي الاستدماري وقد وظف

هؤلاء بعض المفاهيم والمصطلحات ، وأولوها خدمة هذا المشروع كالإسلام

السنّي، والإسلام الصوفي، والإسلام المشرقي، والإسلام المغربي...

آثار التأصيل الاستدماري لتاريخنا:

يجب أولا بيان أن الكتابات التاريخية التي حاولت التأصيل لتاريخ الجزائر

وجعله ينساب في السياق الأوربي للتاريخ كانت تتسم بـ:

1 — أنها بعيدة عن العلمية ولو أنها وظفت المناهج الحديثة للبحث التاريخي.

2 — أن أغلبها إذا لم أقل كلها تبرر الاستعمار — عفوا الاستدمار

3 — أن هذه الكتابات التاريخية تتصف بالتبعية للسياسة الاستعمارية

الاستدمارية.

4 — حاولت ربط تاريخ شمال إفريقيا بمصالح فرنسا².

¹ - G. MARÇAIS, les passé de L'afrique du nord. p,15

et les arabes berberie p, 01.

² - أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص 18.

5 — الكتابات هذه لها صبغة أيديولوجية استعمارية استدمارية¹.

وهذه الكتابات التي بدأت مع بداية الاحتلال قد تطورت عبر مراحل مختلفة وتوجت في الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر (1820 — 1930) بالعديد من المؤلفات تشيد بهذا العهد من بينها كتاب " مؤرخو الجزائر " والذي كتب قزال في مقدمته يقول : " إن هذا المجلد لتاريخ الجزائر من نتاج مؤلفين عاشوا طويلا في الجزائر واشتغلوا بالبحوث العلمية حول هذه البلاد"².

وهذه الجهود بالنسبة لفرنسا أثمرت معرفتها بمكونات الشعب الجزائري ومقدراته حرصا منها على التنفيذ الدقيق لمشروع الاستلاب الفكر والثقافي والنهب المادي، كما أثمرت بدون شك استلاب بعض العقول الجزائرية التي انبهرت بالثقافة الفرنسية، وصدقت بسذاجة ادعاءاتها، وإقامة شبكة من المراكز العلمية والتاريخية عبر الوطن (متاحف، ومكتبات، وأماكن أثرية ...) تربط الجزائر بأسلاف الرومان لشرفاء الفرنسيين والذين سبقت الإشارة إليهم. وللأسف تواصل هذا التأثير في بعضنا حتى اليوم في ظل ظروف التخلف فالمغلوب مولع دائما بغالبه على حد قول ابن خلدون، وذلك على المستوى الفكري واللغوي، وحتى الهوية!

لكن رغم ضخامة هذه الآثار، ورغم محاولة التأصيل هذا ، فقد كان للمشروع الثقافي الاستدماري ردود فعل قوية على المستوى الشعبي بالابتعاد عما هو فرنسي، وعلى مستوى التنظيمات ذات الطابع المدني العلمي والثقافي والديني

¹ - سعيد النجار ، موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر، مجلة " الأصالة " ، السنة الثالثة، العدد 14 ، 15 عام 1973/1393 ، ص. 220.

² - أندري برنيان، وأدري نوشي، وإيف لا كوست. الجزائر بين الماضي والحاضر، ص. 10.

وحتى السياسي بإنشاء النوادي، والجمعيات، والأحزاب، والصحافة الوطنية والمدارس العربية، أما فيما يخص التاريخ والتراث الفكري والثقافي فقد رد الجزائريون على المشروع بتأليف تعدد غاية في الأهمية، ووسيلة ناجعة في المقاومة نذكر منها : كتاب الحفناوي " تعريف الخلف برجال السلف"، وكتاب أحمد التوفيق المدني " كتاب الجزائر " وكتاب مبارك الملي " تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، وكتاب عبد الرحمن الجيلالي " تاريخ الجزائر العام"، كما يعد نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وما قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس من أكبر أوجه المقامة لتأصيل تاريخنا في الاتجاه الاستدماري ومشروعه الفكري والثقافي، وقد تواصلت هذه المقومة بعد استرجاع الاستقلال، لكن في اعتقادي أن المشروع لم ينته بعد وعليه فالمقاومة يجب أن تستمر، ولكن بشكل يراعي المتغيرات الوطنية، والعالمية.

وختاما أقول إن هذه الإطلالة على أوجه محاولة تأصيل تاريخنا لمصلحة المستدمر أحدث شرخا عميقا في المجتمع لكن لم يتمكن من اقتلاع جذوره بفعل الانتماء الحضاري العربي الإسلامي، و لحمه الدين واللغة، وصلابة الأمة وتماسكها، فلم يستطع إذن الشيطان أضعاف وتشيت ما جمعت يد الرحمن وإرادة الشعب والأمة.